برنامج التكون المهني لمربيات الطفولة المبكرة في سياقيه التاريخي والآني

فيفيان طنوس

فيفيان طنوس.

انطلق برنامج التكون المهني لمربيات الطفولة من رؤيا وهدف منبنيين، بشكل أساسي، على العمل مع مربيات كشريكات في بناء هويتهن الذاتية حول فعالية المهنة، وأهمية دورهن اتجاهها، وتطوير مسؤوليتهن حول تحقيق ذواتهن وقدراتهن، من خلال اكتساب منهجيات تفكير جديدة، تقوم على دمج المعرفة والمهارة والقيم، والانخراط في دور مختلف مع المنهاج والمجتمع معاً.

مربيات يبلورن تكونهن المهني عبر إعادة خلق أنفسهن وأدوارهن في المهنة والمجتمع، يعملن على تخيل القادم، وربط الماضي بالحاضر، وبناء أفق للمستقبل. تتحملن مسؤولية كبيرة، تتطلب منهن خلق فرص ومساحات لأطفالهن، يعيدون من خلالها خلق أنفسهم، ويبنون دورهم وزمانهم، وهذا يتطلب منهن تحويل معرفتهن إلى حكمة، ومن ثم إلى خبرة حياتية قابلة للممارسة والتأمل معاً، والانفتاح على التطور الدائم والمستمر، من خلال القدرة على قراءة أنفسهن وأدوارهن من جديد، لبناء ذاكرة حية لهن، وتاريخ لإرادة أطفالهن ترافقهن في مشوارهم الحياتي.

انطلق البرنامج من الإيمان الكبير بأهمية دور المربية، والعمل مع هذه المرحلة العمرية، وضرورة توفير الدعم لها، لنعد أطفالاً لعالم قادم، قد لا يرونه أبداً، لكن يمكنهم أن يحلموا به، ويستعدوا له. فنحن بحاجة إلى توقع المستقبل، وتحفيز كل الخبرات والإبداعات وحكمة العصور لكي نفكر بطريقة غير مألوفة، طريقة تحاكي حاجات القرن الحادي والعشرين، طريقة يمكن أن توصف بأنها خارج الصندوق، لكي تتم رؤية الأشياء من جديد.

بُنية البرنامج

بُني البرنامج على مساقات تدريبية تشتمل على الجانبين النظري والعملي، تقوم على التعلم عبر الممارسة وانطلاقاً منها، في إطار تتابعي من قبل مجموعة من الباحثين والمركزين. هدفت المساقات إلى تشكيل فهم أوسع لفلسفات التعليم وخصائص المرحلة العمرية واحتياجاتها، تقوم على بناء سياقات فاعلة، توظف من خلالها المهارات والقدرات والمعارف ضمن ثقافة الطفل واهتماماته، عبر استخدام منهجيات جديدة في التعليم كالدراما، وعباءة الخبير، والتعلم عبر المشروع، والعلوم، والاستقصاء، والفنون، من قصة، ومسرح، وموسيقى، وإحياء للدمى، إضافة إلى اكتساب ممارسات مشتركة في التخطيط والتوثيق بأشكاله المتعددة، والقراءة التأملية، بهدف تمكين المربيات من حيازة تجاربهن، وبناء خبراتهن كخبرات مستحقة.

يساعد التخطيط المربية على حشد كل المعارف الممكنة والتصورات والنظريات، لوضعها في موضع قابل للعمل، بحيث تحمل معاني مبلورة في أهداف يتم السعي إلى تحقيقها في إطار مشروع.

أما الممارسة/التطبيق، فهي المساحة التي تتعلم من خلالها المربية وأطفالها، إذا ما كانت الممارسة هي بداية التعلم في العمل، فإن نهايته فيها أيضاً، من خلالها تتمكن المربية من استثمار كل ما لديها في موقع العمل لتيسير عملية التعلم لأطفالها.

والتوثيق الذي يعد فاعلاً في العملية التأملية لكلٍّ من المربية وأطفالها معاً، له دور مهم في جعل التخطيط أكثر مرونة، ومحفزاً للتغيير، وأداة بحث تجعل المربية ترى أطفالها وطرق تعلمهم وتفكيرهم واستجاباتهم، وتعمل على الاستقصاء حولها. فـ«التوثيق هو تقرير بحث يستخدم لتعزيز مسار بدلاً من سجل حدث وقع في الماضي»،[1] كذلك فإنه يشكل مرجعية متكررة للأطفال ليقرروا بخصوص أشياء، أو يتحاوروا في نقطة محددة تم طرحها، أو يشرحوا أفكارهم لزملائهم، أو يتفحصوا حقائق وتفاصيل خاصة بالموضوع الذي يعملون فيه.

وبالتوثيق تكتمل الرحلة؛ بدءاً من التخطيط وبناء المعارف ذات الصلة، وممارستها، وانتهاء بتأملها من خلال التوثيق المتعدد الأشكال، وحينها تبدأ عملية التكون المهني للمربية التي تساعدها على اتخاذ مسافة ناقدة اتجاه ممارستها وتكونها وطرح الأسئلة وخلق التفسيرات، فتستمد من خلالها دلالات وتتخذ منها معاني تغذي من خلالها مشروع تطورها الشخصي والمهني، وبالتالي تقيّم نفسها تقييماً ذاتياً بنائياً.

وبالتالي أصبحت العملية تدور في مسار متكامل، تكون فيه المربية مراقبة ذاتية لتطورها المهني، ومراقبة لأطفالها مع مراعاة فرديتهم، كما عملهم الجماعي، ويكون حينها «**المعلم رفيقاً بالغاً للطفل في مغامرة فكرية**».[2]

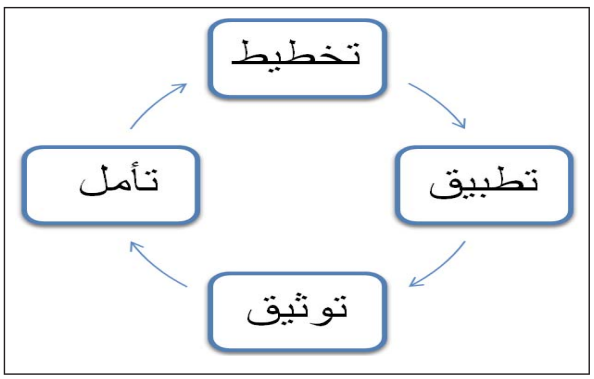

الأطفال يقررون تعلمهم هو أعلى أشكال التعليم

«عقول لا ترضخ، بل تفكر وتُسائل وتقرر»

يسير التعليم في رياضنا بشكل عام باتجاه واحد، وهو الاتجاه العمودي الذي يقوم على هدف تحضير الأطفال للصف التالي أو السنة التالية، متجاهلاً في ذلك أهمية العمل الأفقي الذي يعود إلى توظيف الأنشطة التعلمية ذات المعنى، التي يمكنها أن توظف الخبرة والكفاءة التي تتناسب مع أعمار الأطفال، وتزودهم بالممكنات اللازمة لمساعدتهم على فهم الظواهر البعيدة لخبرتهم الأولى التي يأتون مزودين بها لفهم العالم بشكل أعمق.

فالتعلم الغني هو ذلك الذي يسير في الاتجاهين معاً، بحيث يقدم كل الدعم للأطفال لكي يكونوا مفكرين مستقلين ومشاركين فعالين يتحملون مسؤولية تعلمهم. أما دور البالغين، فيكمن في توفير سياقات ومصادر تثير فضول الأطفال واهتماماتهم، ليستكشفوا ويتناقشوا ويفكروا ويصنعوا قراراتهم وخياراتهم، ويبنوا صلات جديدة، ويشكلوا معاني، ويفكروا بشكل نقدي ويطرحوا أسئلة تقودهم للتعلم والاستكشاف، وتدفعهم إلى منطقة تعلم أعمق وأبعد من المنطقة التي يتواجدون فيها، وبالتالي يتحضّر الأطفال لمناطق أبعد من منطقة تعلم للسنة التالية أو الصف التالي.

ولتحقيق ذلك، عمل برنامج التكون المهني لمربيات هذه المرحلة على تزويدهن بخبرات ومعارف ضمن منهجيات مختلفة يمكنها أن تمكّن الأطفال من العمل والتفكير من أجل أنفسهم، ولأجل تعلمهم، عبر توفير مجتمع داعم لهم، وفرص وثقافة تعلمية تستطيع أن تغير حيواتهم، وتجعلهم قادرين على تطوير ثقتهم بأنفسهم كمتعلمين إبداعيين ومفكرين قادرين على حل مشكلاتهم، يعرفون أين يقفون من هذا العالم، وما الذي يحتاجون لمعرفته في المرحلة القادمة، حيث بين فيجوتسكي «**أن مؤشر مستوى التفكير عند الطفل، ليس هو أنه يعرف، وليس ما هو قادر على استيعابه، وإنما كيف يفكر في هذا المجال، وأين لا يملك أي معارف، وهنا يقف التعليم والتطور، المعرفة والتفكير وجهاً لوجه**».

هذا النوع من التعليم المقدم على شكل سياقات فاعلة تكاملية، تتيح للطفل فرصة المشاركة المستدامة في بيئة التعلم، وتجعله يطرح العديد من التساؤلات التي تساعده في فهم ذاته والعالم من حوله، وفهم خبراته السابقة المكتسبة، واكتساب خبرات جديدة في بيئة آمنة ومنها: «من أنا؟ ما هي حقوقي وواجباتي ومسؤولياتي اتجاه المجتمع وعناصره؟ كيف أفهم العالم من حولي؟ وما هي طرق التواصل معه؟ إلى أين اذهب؟ كيف أصف وأحلل وأشكل العالم من حولي؟ كيف أحل المشاكل التي تواجهني؟ وكيف أصنع قراراتي واختياراتي؟».

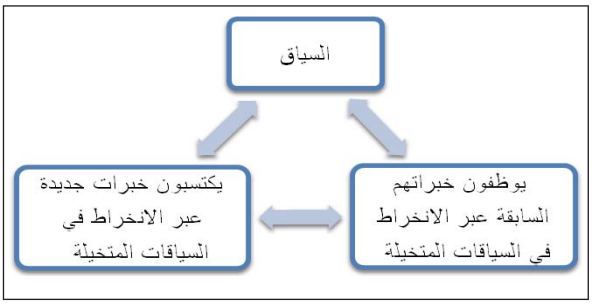

ما وفره البرنامج للمربيات وأطفالهن، هو اكتساب خبرات جديدة متنوعة ضمن أصعدة عدة، تساعدهم على الكشف عن عالم يعايشونه معاً، لكنهم بحاجة لتشابك الأيدي لخوض رحلة الاستكشاف وفتح أعينهم بشكل أوسع لرؤية الأمور بعمق ووضوح أكبر، وتوظيف كل ما لديهم لبناء لغة خاصة ومشتركة يشعرون من خلالها بفرديتهم داخل المجموعة، وتميزهم، ما يزيد من ثقتهم بأنفسهم وبقدراتهم، ويحفز دافعيتهم للتعلم، حيث توضح مارغريت دونالدسون "إن الطفل العادي يأتي إلى المدرسة مزوداً بمهارات متينة تؤهله أن يكون مفكراً، إلا أن تفكيره يكون موجهاً للخارج نحو العالم الحقيقي الزاخر بالمعاني والتحول والحيرة، ولكي ينجح في نظامنا التربوي، عليه أن يتعلم كيف يقلب اللغة والتفكير رأساً على عقب، وأن يكون قادراً على توجيه عملياته الفكرية بأسلوب واع. ويتوجب عليه ألا يكون قادراً على الحديث فحسب، بل عليه أيضاً أن يختار ما يود قوله، لا للتفسير فحسب، بل وليقيم التفسيرات الممكنة أيضاً، والتعامل مع الرموز بكفاءة (اللغة).

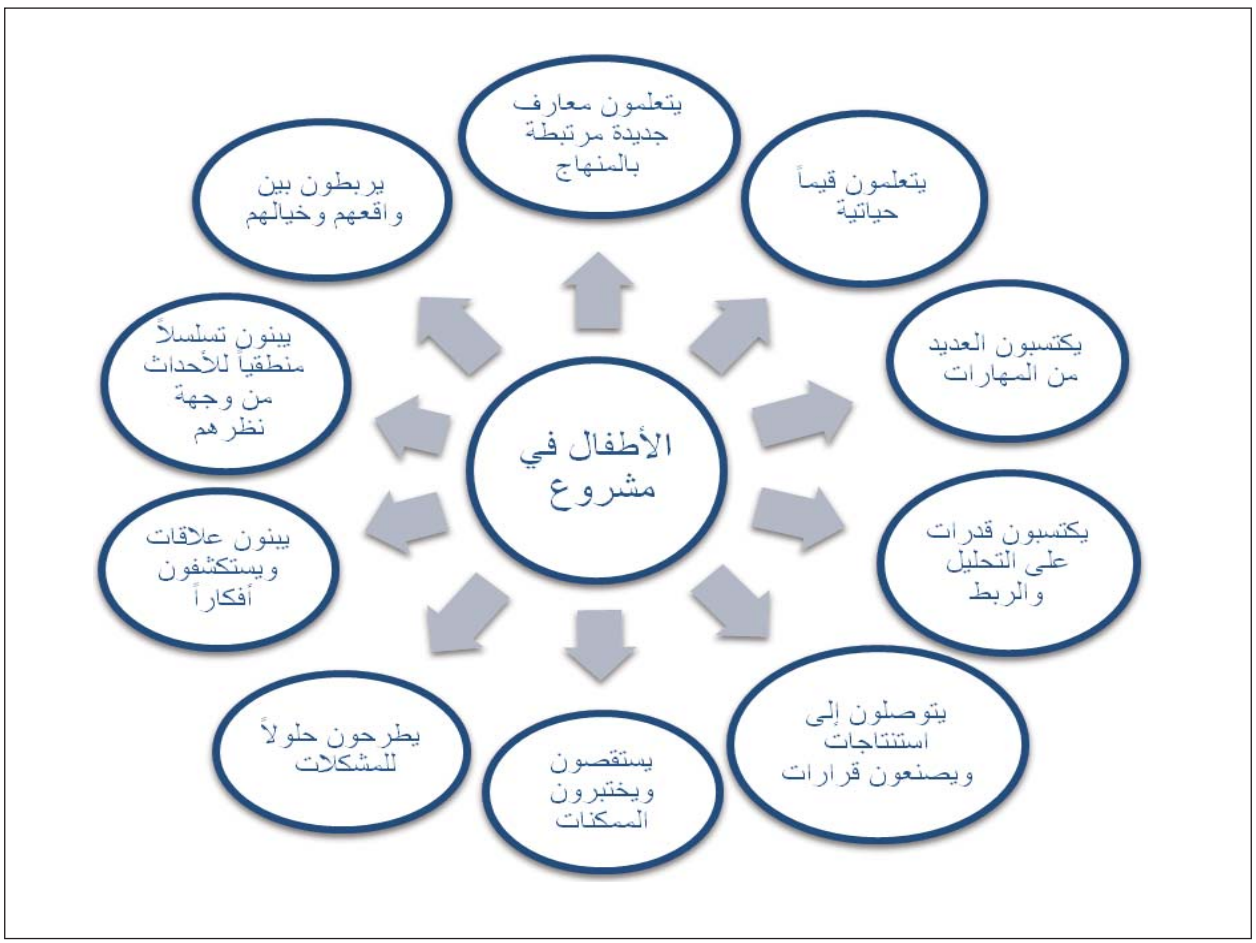

الخيال أداة تعلم

يعتقد الكثيرون منا أن الخيال لا يمت للواقع بأي صلة، وليس له أي دلالات واقعية، متناسيين أنه المكون الأساسي في خلق الأنشطة الإبداعية في مناحي الحياة المختلفة؛ أكانت الأدبية منها كالشعر والقصة ... أم العلمية كالاختراعات والأدوية ... أم الفنون بجميع أشكالها، أم العديد غيرها.

كل شيء حولنا ومن صنع الإنسان، يعود إلى ما يسمى الخيال، ولذلك يعرّف الخيال بأنه «النشاط الإبداعي المرتكز على قدرة

الدماغ في الجمع بين العناصر» كما وضحه فيجوتسكي في كتابه **الخيال والإبداع في مرحلة الطفولة**، وأن الخيال ليس تسلية للعقول الخاملة أو نشاطاً بدون عواقب في الواقع، بل هو وظيفة أساسية للحياة «وأن كل ما ينتجه الخيال يعتمد بشكل أساسي على عناصر أخذت من الحياة الواقعية ومن خبرة الإنسان السابقة، وأنه يمكننا التعرف على العمليات الإبداعية عند الأطفال بمراحل مبكرة جداً، وبخاصة أثناء لعبهم. فالأطفال يصلون إلى أعلى مستويات التفكير عبر اللعب. ويضيف أن الخيال دائماً يبني من خلال استخدامه أدوات مستمدة من الواقع، وإذا أردنا أن نبني أساساً متيناً لإبداع الأطفال، علينا أن نوسع الخبرات التي نزودهم بها، حيث يمكن للطفل أن يتخيل ما لم يره، وليس أن يتصور الأشياء من خلال سرد الآخرين لها، أو وصفهم لشيء لم يختبره هو بشكل مباشر».

وانطلاقاً من الإيمان بالدور الكبير للخيال كإحدى أدوات التعلم التي تم اعتمادها في المشاريع التي طبقت في الرياض، والتي تكشَّفَ من خلالها الكثير من الأفكار التي بناها الأطفال، والتي جعلت المربيات ينبهرن بمخيلاتهم وقصصهم التي يروونها كشعراء تارة، وكروائيين تارة أخرى، وبالحلول الإبداعية التي طرحوها، وبالخيارات والقرارات التي صنعوها، معتمدين بذلك على دمج بين عناصر الواقع وخبراتهم البسيطة المكتسبة من بيئتهم ومجتمعهم من جهة، مع الخيال الذي شكل لديهم أداة تعلم واستكشاف من جهة أخرى.

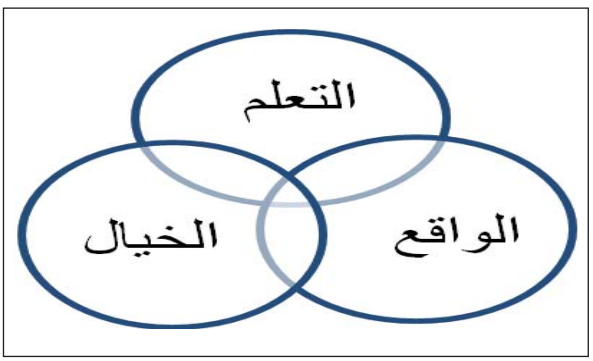

إبداعات الأطفال تعلق في ذاكرة المربيات لتتكشف لهن فلسفة عميقة بداخلها كانت قد غابت عن الكثيرين مما اعتقدوا أن هؤلاء الأطفال لا يوجد لديهم شيء، وأنهم بحاجة دائماً لمن يلقنهم المعرفة تلقيناً، تاركين مربياتهم مع الكثير من الأسئلة التي تجول بخواطرهن؛ مثل "من أين أتت هذه الأفكار؟ ما الذي دفعها للظهور؟ ما هي الآلية التي يمكن اتّباعها لاستمرارية تدفقها؟ كيف نتعامل معها؟".

وأذكر من الأمثلة التي ظهرت في المشاريع:

- الطفلة: أريد أن آكل وأشرب حتى أكبر سريعاً وأصل السماء، حيث صديقتي النجمة التي أحكي لها كل أسراي، وهي تحكي لي أسرارها.
- المعلمة: أعطيني نجمتك لأتحدث معها قليلاً أنا أيضاً.
- الطفلة: لا أستطيع إعطاءك نجمتي، لكن يمكنك أن تأخذي القمر صديقاً لك.

إذا ما دققنا في هذا المثال، نجد أن الطفلة استخدمت خبرتها السابقة ومعرفتها المستمدة من الواقع أن النجمة في السماء، وهي على الأرض، وأنها حتى تكبر تحتاج للطعام والشراب، وباستخدام مخيلتها يمكنها الوصول للسماء إلى صديقتها النجمة التي يمكنها أن تتبادل وإياها الأسرار، حيث ظهر مفهوم السر كتعلم أيضاً.

ومثال آخر لطفلة تُسقِط قصة انفصال والديها (أي واقعها) في المشروع الذي تعمل فيه مع زملائها ومربيتها (عبر الخيال)، من خلال قصة مشروع عن الفراشات، حيث عبّرت بقولها "إن الفراشات الكبيرة هربت بعيداً وتركت أولادها وحدهم"، ما دعى المربية للبحث في إجابة الطفلة التي أصرت طوال المشروع على البحث عن طريقة تُعيد فيها اليرقات للفراشات، حتى اكتشفت المربية الأزمة النفسية التي تمر بها الطفلة، والتي تخطتها عبر التعبير عنها باللغة، والتعويض عن حاجاتها ومشاعرها بالخيال.

هناك العديد من الأمثلة التي لا يسعنا ذكرها هنا، والتي ظهرت في جميع المشاريع دون استثناء، والتي بينت أن من أهم مميزاتها هو خلق أطفال يمتلكون قدرة كبيرة على التعامل مع الخيال وتصديقه تصديقاً واعياً، يعايشونه ويتعاملون معه بنباهة، ويفصلون بينه وبين الواقع.

المجاورة رحلة تطور وتعلُّم وقيادة

سعى البرنامج كذلك إلى جعل التجربة تجربة تعلم ممكنة، وشكلاً واعياً لتعلم يمكن نقله وتعميمه وتشاركه ضمن بيئة محفزة تقوم على التفكير المشترك والمستدام عبر برنامج استكمالي ضمن برنامج التكون المهني، الذي سعى إلى خلق مربيات قياديات حقيقيات تعملن على دعم أخريات معهن عبر تمرير تجربتهن إليهن بالممارسة، ومن خلال الفعل الصفي؛ أي الموطن الأصلي للتطور المهني.

تجربة تقوم على التجاور والحوار، حيث كل مربية تعمل مع زميلة لها، تفعل وتشاهد ثم ترى فعلها مرة أخرى عندما تشاهد زميلتها وهي تفعل، حلقات متواصلة من الفعل والمشاهدة جعلت المشروع

عبارة عن رحلة تأمل وتعلم، رحلة مشاركة وتعاون وتطور، رحلة بناء الثقة واللغة المشتركة، رحلة داخل رحلة، رحلة المربية مع زميلاتها، ورحلة المربية مع أطفالها، ورحلة المربية مع نفسها، حيث تسأل طوال الوقت، وتبني، وتفكر، وتحلل في مشروع بات يخص الجميع، والجميع يعملون فيه معاً من أجل هدف واحد، وهو الطفل.

بالانخراط في تجربة المجاورة، استبدلت المربيات الكثير من المفاهيم والقيم التي اعتدن عليها، فكلمة مشروع استبدلت بكلمة مشروعنا، وكلمة أنا بـ «نحن»، وصفي بالروضة، وأطفالي بأطفالنا، مربيات تحولن من ملقنات إلى مغامرات، أصابعهن بدأت تخط ما تسمع آذانهن من أفكار جديدة، ودفاتر دبت فيها الحياة من جديد، منهاج تم إخراجه من رتابته وبث الحياة فيه، فانتقل التعليم برمته إلى تعليم مبني على الاهتمام والجذب، وتحول التعلم إلى مهام عملية، يقوم فيها الأطفال بحب ورغبة ودافعية عالية.

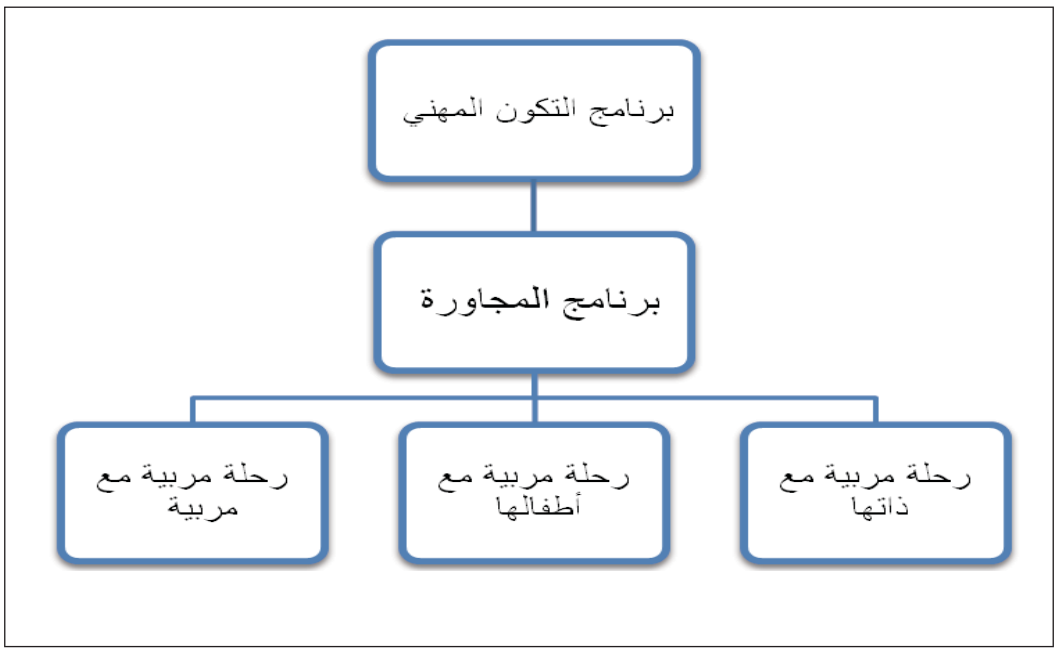

تعلّم لتعلم يدوم مدى الحياة

عمل البرنامج عبر رحلته في السنوات الخمس الماضية على إكساب المربيات تجربة جديدة، منحتهن قصة جديدة؛ قصة في ضوئها تمكّنّ من مراجعة طريقتهن القديمة في التعليم، وتجرأن عليها بنقدها وإعادة تشكيلها، وهذا ما عبرن عنه في تجاربهن التي عرضنها في اليوم الدراسي، وفي تأملاتهن التي خططنها، والتي يقدم الملف صورة عنها، ويعرض جزءاً من إنجازاتهن.

إن ما حاولت المربيات التعبير عنه عبر رحلتهن في البرنامج، هو عدم اقتصار التعلم الذي اكتسبوه هن وأطفالهن بالعمل معاً في المشاريع على موضوع تعلمي واحد، أو حيز واحد كغرفة الصف، أو الروضة، بل أخذ بالاتساع أفقياً، من حيث الموضوعات، ليفسح مجالاً كبيراً لتكاملها، إضافة إلى نقل الأطفال تجربتهم إلى بيوتهم وبيئاتهم الحياتية الأخرى، فتساءل حينها كل من سمع فيه بما يدور داخل الرياض، وأي نوع من التعليم هذا الذي يستحوذ على اهتمام الأطفال لهذه الدرجة، ويخلق تعلماً يدوم فترة طويلة؟

إن البرنامج حالياً في دورته الجديدة سيشكل امتداداً للبرنامج السابق كمنهجية، ويبني عليها تجارب جديدة، تقوم على بناء تعلم يدوم مدى الحياة، تجارب تعمل على إغناء البيئات بكفاءات وطاقات بشرية توظف كل الإمكانات المتوفرة بشكل خلاّق، ما يمكّنها من جسر الهوة بين الروضات ذات الإمكانيات المختلفة.

باحثة في مركز القطان

الهوامش:

1 إدواردس وآخرون. 1998. ورد في: بانكروفت، سوزي وأخريات. 2014. 5×5×5= إبداع- **بحث في أطفال يستقصون العالم**، ترجمة: عيسى بشارة، رام الله: مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، ص 21.

2 بانكروفت، سوزي وأخريات. 2014. 5×5×5= إبداع- **بحث في أطفال يستقصون العالم**، ترجمة: عيسى بشارة، رام الله: مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، ص 32.

3 دايفيدوف، فاسيلي. 2003. **مشكلات التعليم المطور**، ترجمة: بدر الدين عامود، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ص 58.

4 دونالدسون، مارغريت. 2002. **عقول الأطفال**، ترجمة: عادل ياسين، الطبعة الثانية، الكويت: دار الرضا للنشر، ص107.